مجلة بحوث اللغات، المجلد ١ العدد 4

تجليات التضاد في شعر الحطيئة واثره في الدلالة

أ. م. د. نبراس خماس محمد كلية التربية، طوزخورماتو

ملخص البحث :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد :

تقوم هذه الدراسة على محاولة استجلاء واستنطاق النص من منظور يؤمن بأن النص الشعري هو نص مفتوح للقراءة لاكتشاف العلاقات بين النصوص من خلال التضاد الذي يعد مثيراً أسلوبياً ؛ لكونه خروج عن مألوف اللغة مما يشكل مفاجأة للقارئ ، والحطيئة هذا الشاعر يبدو التضاد اكثر وضوحاً في شعره لتناغمه مع حياته واضطرابه ، بل إنه يمثل التضاد بحد ذاته ، فقد اجتمع التضاد فيه كما وصفه الاصمعي ، وسنقف في هذا البحث على نماذج من تجليات التضاد في شعره.

المدخل:

يمثل التضاد ظاهرة طبيعية في حياة الإنسان ، عاشها الشاعر وجعلها جزءاً من تجربته ووظفها في تواصله مع الاخرين وفي التعبير عن مضامينه الشعرية . فالحياة تتشكل من التضاد والشاعر أينما نظر رأى امام ناظره متضادات تشكل ثنائية كالموت والحياة ، والعطاء والمنع ، الماضي والحاضر ، والحضور والغياب ، والخيال والواقع ..... وقد ورد للتضاد مفهوم قديم إذ جاء في المعاجم ضاده) : خالفه ، فهما متضادان))(١) ((فالسواد ضد البياض ، والموت ضد الحياة ، والليل ضد النهار (((٢) وفي الثقافة العربية يعد الجاحظ من اوائل من تنبه إلى الثنائيات الضدية على إنها تشكل قانون الحياة ، إذ يرى إن العالم يقوم على متفق ومتضاد ومختلف (٣) ، كما يعد كتابه المحاسن والاضداد مثال على اجتماع الفكرة وضدها . كما ورد التضاد عند عبد القاهر الجرجاني فقد تنبه هذا الناقد الفذ إلى أهمية التضاد في تشكيل الصورة الفنية قائلاً : وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب... ويريك التئام عين الاضداد))(٤) فالجرجاني يدرك أثر الثنائيات الضدية في خلق المعنى في النص ، واثراء بالدلالات التي تتشكل من هذه النصوص أما في النقد الحديث فيرى جان كوهين إن التضاد ينشأ من ((شعورين مختلفين يوقظان الاحساس ، وواحد من هذين الشعورين فقط هو الذي يستثمر نظام الادراك في الوعي ، والثاني يظل في اللاوعي .))(٥) ، فالذي يستثمر هو الذي يظهر وينشغل الشاعر في ابرازه ، ونجد شاعرنا الحطيئة قد اجتمع التضاد فيه كما وصفه الاصمعي ((قليل الخير ، كثير الشر)) (٢) . جمع الحطيئة بين متضادين دناءة النفس والشاعرية الفذة التي تصدر من نفس سامية كريمة (٧) ، ومن هنا اعتمدنا في دراستنا على تجليات التضاد في شعره وبما ينسجم . مع خطة البحث ، لما في التضاد من طاقة شعرية تزيد المعنى وضوحاً ، فالتضاد . ((احد المنابع الرئيسة للفجوة – مسافة –التوتر – وإننا إذا أحسسنا اكتناه التضاد وتحديد مختلف أنماطه ومناحي تجليه في الشعر ، استطعنا في نهاية المطاف ان نضع أنفسنا في مكان هو الاكثر امتيازاً وقدرة على معاينة الشعرية وفهمها من الداخل)) (٨) فلغة التضاد هي لغة المغايرة.

والتصادم ، وتكمن أهمية التضاد في كونه معبراً اسلوبياً، فالتضاد يتحول إلى شعرية إلى ينبوع خارق للمألوف مفاجئ للقارئ لكون الشعر بين الكلمة وضدها فيستثمر احدهما ويبرز اثره ودلالته ويستمد ذلك من ضده . ولا يخفى أن الحطيئة كان يشعر بالضياع بسبب اضطراب نسبه ، هذا الضياع الذي تحول إلى نفس شعري ترك بصمة في تاريخ الشعر العربي ، ولاشك في أن ((علة الابداع الفني تكمن في أن الفنان يعاني انفعالاً أو توتراً إزاء أحداث أو وقائع أو ظواهر اجتماعية أو اقتصادية)) (9).. من هنا يكشف البحث عن قيمة التضاد في شعر الحطيئة والكشف عن نظرته للحياة من خلال وجود التضاد في شعره ، وقد اعتمدت في دراستي على النماذج المتضادة التي تتفق مع النصوص الشعرية الموجودة في مادة البحث ، وهدفها ابراز اثر التضاد في توليد المعاني الشعرية التي تثري النص بالأحاسيس والصورة المعبرة لإيصالها إلى المتلقي وعليه سنقسم البحث إلى :

اولاً: تجلي التضاد في (المنع و العطاء)

تتجاوب النفوس مع العطاء والإحسان ، ويزهو القول ويجوده اصحابه إذا كانوا يرجون منه جزاء عليه، فالعطاء دافع على المديح ، والرغبة والطمع تدفع الشاعر إلى الإجادة وقد قيل للحطيئة ((أي الناس اشعر ؟ فاخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حيّة ، فقال : هذا إذا طمع)) (10). فسعيه الدائم وراء العطاء فضلاً عن انتمائه لمدرسة أوس بن حجر جعله يجود في الأشعار والاهتمام بالألفاظ والمعاني المسبوكة سبكاً جيداً ، يقول (١١).

أحقاً أبا زرّ حَدِيثٌ سَمِعْتَهُ و إلا يُحلُّ مِن دُونِ خَيْرِكَ تَنْفَعِ

فما زِلْتَ تُعْطِي النَّفْسَ حتَّى تَجاوَزَتْ مُنَاها فأَعْطِ الْآنَ إِنْ شِئْتَ أَوْ دَعِ

يفرض التشكيل الشعري في الأبيات تضاداً خاصاً بالشاعر ، انطلاقاً من موقفه من العطاء والكرم ، فظاهر النص يبدو أن الشاعر تساوى لديه المنع والعطاء نتيجة كرم الممدوح ، لكن اذا دققنا النظر نلحظ إن الابيات تكشف التضاد ، فالعطاء هو المطلوب وهو ما يريده الشاعر ، لذا نرى أنه تكرر مرتين في النص في البيت) تعطي ، فأعط) أن سؤال الشاعر الذي تصدر الابيات سؤال ينطوي على يقين بإحسان الممدوح وجزيل العطاء فقد تصدرت الاجابة في البيت الثاني بظهور احد طرفي التضاد وتحققه وهو العطاء وما التخيير في (فأعط الآن إن شئت أو دع) الا بعد تحقق العطاء لذا قدم فأعط.

ويقول في قصيدة أخرى(12):

ستكفيك أمثالُ المجادل جلّةٌ مهاريس يُغْنِي الْمُعتَفِينَ شَكِيرُها

....

عطاءُ مَلِيكٍ مَا يُكَدرُ سَيْبَهُ إذا بخلَتْ سَهْمٌ وَخابَ عَشِيرُها

تفصح الابيات الشعرية عن التضاد الذي وظفه الشاعر في النص ليبزر فكرة تلح على مخيلته وهي فكرة العطاء المستمر والكسب الدائم ؛ لذلك جاء بأحد طرفي التضاد اسم يدل على الثبوت وهو (عطاء) وكرره بلفظة مرادفة دالة على الكرم والعطاء وهي (سيبه) ،فالتنبيه الآتي مع فعل الاستفتاح (ستكفيك) يعطي شعوراً باليقين بدوام العطاء ، فالعطاء والبخل في هذا النص طرفان غير متكافئين ، فقد ذكر الطرف الاول مرتين بينما ذكر الطرف الثاني مرة

واحدة . وربما تؤدي الثنائية إلى ثنائية اخرى فتكشف عن رغبة الشاعر الذاتية في العطاء هي ثنائية الاسم / الفعل (عطاء بخلت) التضاد بين دلالة الثبوت والتجدد ؛ لذلك جاء العطاء بالاسمية فهي صفة ثابتة فيهم متأصلة لديهم .

ويتجلى التضاد في قوله (١٣)

لا يُبْعِدِ اللَّهُ إِذْ وَدَّعْتُ أَرْضَهُمُ ... أخي بَغيضاً ولكنْ غَيْرهُ بَعُدَا
لا يُبْعِدِ اللَّهُ مَنْ يُعْطِي الجَزِيلَ وَمَنْ ... يخبو الجليل وما أكدى ولا نكذا
ومَنْ تُلاقيه بالمَعْرُوفِ مُبْتَهِجا ... إذا اجْرَهَدَّ صَفَا المَذْمُومِ أو صَلَدَا
لا قَيْته ثَلِجاً تَنْدى أناملُه ... إنْ يُعْطِكَ الْيَوْمَ لَا يَمْنَعْكَ ذَاكَ غدا
إِنِّي لَرَافِدُهُ وُذِي وَمَنْصَرَتِي ... و حافِظٌ غَيْبَهُ إِنْ عَابَ أو شهدا

يأخذ التضاد عند الشاعر مركزاً لانتشاره في المقطوعة ، وقد تجلى في مواضع كثيرة وتوزع على صفحات الابيات ليشكل نسيجاً نصياً يكشف رؤية الشاعر وفلسفته الدائمة الباحثة عن العطاء والكسب بشتى الوسائل ، ويطالعنا في هذه المقطوعة عالمان متناقضان ، عالم العطاء والجزاء والرفد ودوامه ، وعالم المنع والبخل وانعدامه في الممدوح ، ومثل هذا التضاد يشكل حركة داخل النص الشعري جسدت تطلعات الشاعر للعطاء (لا يبعد بعدا ، يعطي / ما أكدى ولا نكدا ، يعطيك اليوم / لا يمنعك) فقد تجلى التضاد بشكل جلي في هذه الابيات وجسد حال الشاعر الذي عبرت لغته عنه ، كما وردت متضادات اخرى ترفد هذه المتضادات ك اليوم / غدا (كتجسيد من الشاعر بأيمانه بدوام العطاء وعدم انقطاعه في اليوم والغدا ، فقد اخذ من الحركة الزمنية حركة دينامية داخل النص الشعري ليجعل العطاء مستمراً وغير منقطع، وتولدت من هذه الثنائيات المتضادة ثنائية اخرى (إن غاب / أو شهدا)

التضاد بين الحضور والغياب فيقين الشاعر بكرم الممدوح جعله يرفده بوده والحفاظ عليه سواء كان حاضراً أم غائباً ، إن الذي يربط هذه الثنائيات المتضادة مركزية العطاء الدائم المستمر مقابل البخل الذي نفاه الشاعر عن ممدوحه . وقد اسهم التضاد في الحفاظ على النسيج الشعري ، ذلك ولا عجب في (فالتضاد كلما كان حاداً ، كان أكثر قدرة على الربط النصي) (١٤)

ويبرز التضاد في قوله (١٥) :

سيري أُمامَ فَإِنَّ المال يجمعه ... سَيْبُ الإله وإقْبَالي وإدبَارِي
إلى مَعَاشِرَ مِنْهُم يا أُمَامُ أَبي ... من آلِ عَوْفٍ بُدُوءٌ غيرِ أَشْرَارِ
نمشي إلى ضوء أحسابٍ أَضَأْنَ لنا ... ما ضَوَأتْ لِيلةُ القَمْرَاءِ لِلسَّارِي

أقام الشاعر علاقة متضادة بين (الاقبال / الادبار)فعطاء الله وسعيه الدائم في الآفاق إقبالاً وادباراً سبب الكسب والرزق ، فالشاعر يعبر عن سعيه الدائم بحثاً عن العطاء الجزيل ،

ومعروف عن شاعرنا لسانه السليط الذي كان يحصل فيه على ما يريد من كسب ، اتقاء لهجائه والخوف من السبة التي تلحق الذين يهجوهم ، فأن التضاد هنا كان ضمنياً بين (العطاء/ البخل) ؛ لان الشاعر ضمن العطاء ونفى عمن يلتقيهم في اقباله وإدباره البخل .

تبرز سمة الثقة واليقين في قصيدته ، فقد قالها وهو مطمئن إلى إن من يقصدهم سادة بني عوف وتربطه معهم قرابة ونسب لذا جاء خطابه للمرأة من نفس موقنة بالعطاء استمدت يقينها من أحساب القوم الذين رفدوه وكرموه إذ جعلهم بذلك مستمرين ما استمرت الليلة القمراء تضيء للسائر في الليل ظلامه ، وكذا حال الشاعر حصل على العطاء وبدد ظلمة الفقر.

ويقول (١٦) :

و رَأَوْا شَمَائِلَ مَاجِدٍ أَنُفٍ ... يُعطي على الميسور والعُسرِ
فَنُزِعْتَ مَكْذُوباً عليك ولَمْ ... تَنْزِعُ إلى طَمَع ولا فَقْرِ

يسيطر العطاء على فضاء النصوص ليستبعد ضده وهو البخل وعدم الجود في أيام العسر التي يظهر فيها الانسان المعطاء الكريم، وهنا يبرز التضاد في العسر واليسر وحال المعطاء في كلا الحالتين ، فالجواد يبقى جواد حتى في أيام العسر ولا تؤثر فيه الاحداث والظروف ، وفي اخفاء الطرف النقيض (البخيل) يبرز الضد وهو الكريم ، فالشاعر وظف الثنائية المتضادة ليبين مدى كرم الممدوح وعطائه ، وقد نجح في هذا التوظيف من خلال التضاد الحاصل في العسر واليسر وفي حال الممدوح في الحالين ، فهو دائم العطاء حتى اذا عم العسر والجدب.

وينسج الشاعر ابياته على التضاد من خلال نظرته إلى العطاء إذ يقول (١٧)

فما زَالَتِ العوجاءُ تَجْرِي ضُفُوْرُها ... إِلَيْكَ ابْنَ شَمَّاسٍ تَرُوحٍ وتَغْتَدِي
تَزُورُ امْرِءاً يُؤْتِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ ... وَيَعْلَمُ أَنَّ البُخْلَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
يرَى البُخْلُ لا يُبْقي على المَرْءِ مَالَهُ ... ومَنْ يُؤْتِ أَثْمَانَ الْمَحَامِدِ يُحْمَدِ
كسوب ومتلاف إذا ما سألته ... تهلل واهتز اهتزاز المهند
متى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِندَهَا خَيْرُ مُوقِدِ
وذاك امرؤ إِنْ يُعْطِكَ اليومَ نَائِلاً ... بِكَفَّيْهِ لا يَمْنَعْكَ من نائلِ الغَدِ
وأنتَ امرؤٌ مَنْ تَرْمْ تَهدَمْ صَفَاتَهُ ... ويرمي فَلَا يَهْدِمْ صَفَاتَكَ مُرْتَدِ
سواءٌ عَلَيْهِ أَيُّ حِينٍ أَتَيْتَهُ ... أفي يَوْمِ نَحْسٍ كَان أَوْ يَوْمِ أَسْعُدِ

ترتبط ثنائية(تروح / تغتدي) مع الحمد والثناء على العطاء ، فالكريم لابد ان يكون ضده البخيل ، وممدوح الشاعر في هذه القصيدة استحق الثناء والحمد لعطاياه ؛ لذلك جاء

التضاد ليصور حركة الابل الدائمة طلباً للعطاء والجزاء ، ويبدو التضاد جلياً في هذه القصيدة (يؤتي على الحمد ماله البخيل غير مخلد ، إن يعطيك اليوم / لا يمنعك) و(يوم نحس / يوم أسعد) تعكس آلية التضاد رؤية الشاعر إلى الكرم والعطاء ، فالرجل الكريم ينفق ماله ويكتسب الحمد ، ويجعل من العطاء سبباً للثناء والمدح ، ويترك البخل فهو لا يخلد المال ولا الذكر ويصور الشاعر صورة البخل صورة بصرية عبر الفعل (يرى) ويؤكد هذه الصورة بالفعل (يعلم) فهو على يقين من فلسفته تجاه المال ، وإنما يستحق الانسان حسن الثناء والذكر اذا كان معطاء جواد ، فالنص يتكئ على التضاد لما فيه من أبعاد نفسية ومعنوية معاً ، فالمال والعطاء سبب الذكر والحمد والبخل لا يخلد صاحبه ولا يعطيه الثناء ، وقد تضمن النص صوراً تضادية شكلت رؤية الشاعر فقد وصف ممدوحه ووصف كرمه المتجدد ، فهو يعطي اليوم ولا يحول شيء دون عطائه في الغد ، وأقام علاقة بديعة بين العطاء والبخل من خلال هذا التضاد ، وتبدو فاعلية اسلوب الالتفاف من خلال التضاد ، فالشاعر يفاجئ القارئ (ذاك امرؤ وأنت امرؤ والممدوح واحد فجعل له حالين وبنى التضاد بين الممدوح والآخر مع انهما شخصية واحدة ، والحاصل ان التضاد جاء لتحفيز المتلقي وشدّة إلى مضامين الخطاب النصي كما برز من خلال التضاد تساوي أيام الممدوح ففي أي يوم تأتيه تنال خيره ؛ لان أيامه كلها مؤاتيه ، فعنصرا (النحس، السعد) يكشفان عن أبعاد نفسية ، فالسعد يعني العطاء والكرم وحسن المآب ويغدو هذا اليوم محبوباً عند الشاعر ، أم النحس فيعني المنع والبخل وهو ما لا يريده الشاعر وينفيه عن الممدوح لأنه تساوت أيام العطاء فلا نحس فيه .

ويتولد من تضاد العطاء والمنع تضاد الغنى والفقر يقول))[18]

مُنَعَمَةٌ تَصُونُ إِلَيْكَ مِنْهَا ـــــــــــــــــــــــ ـــــــــــــــــــــــ

كَصَوْنِكَ مِنَ رِدَاءٍ شَرْعِبي ـــــــــــــــــــــــ ـــــــــــــــــــــــ

فَمَا لَكَ غَيْرُ تَنْظَارٍ إِلَيْهَا كَمَا نَظَرَ الفَقِيرُ إِلَى الغَنِيِّ

تبرز الفاظ الغنى والفقر في أطار المتضادات التي تناولها الحطيئة ، فجاء التضاد مثيراً اسلوبياً يكشف الشاعر من خلاله رؤيته التي وظفها في الغزل ، فالشاعر في مقام تغزل ولكنه من خلال التضاد استطاع أن يصور خلجات نفسه التي عانت من الحرمان ، فنظرة الفقير للغني تحمل الكثير من المعاني كالحسد والتمني والرجاء ، إضافة إلى نظرة الحرمان التي ترتسم في عيون الفقير ، والشاعر يصور نفسه المحروم من تلك المرأة التي نظر إليها كما نظر الفقير إلى الغني.

والحديث عن التضاد بين العطاء والمنع يقودنا إلى الحديث عن الحضور

والغياب يقول الحطيئة (١٩) :

إِذا غِبْتَ عَنَّا غَابَ عَنَّا رَبِيعُنا وَنُسْقَى الغَمَامَ الغُرَّ حين تَؤُوبُ

فَنِعْمَ الْفَتَى تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ إذا الريحُ هَبَّتْ والمكانُ جَدِيبُ

وما زِلْتَ تُعطِي النَّفْسَ حتَّى كَأَنَّما يظلُّ لأقوَامٍ عَلَيْكَ نَحُوبُ

إليك تَنَاهى كُلُّ أمرٍ يَنوبُنا وَعِنْدَ ظِلالِ المَوْتِ أَنتَ حَسِيبُ

تظهر في هذه القصيدة ثنائية العطاء والمنع ، لكنها ترجح لغة العطاء ؛ فالكشف عن غيابهم وارتباط الربيع بهم يمثل في نظر الشاعر الغياب الذي يعني غياب العطاء ، إلا ان الحديث عن عودتهم وحضروهم يبعث في نفس الشاعر الرضى ، فهو إن ابتدأ البيت بفعل الغياب (غبت غاب) وتكرار الجار والمجرور (عنا) للدلالة المطلقة على تعلقه بالممدوح وعطائه وجعل عطائه ربيعاً لهم فجعله كالغمام الذي يسيطر على فضاء النص هو العطاء (نسقى الغمام، تعطي النفس) فالأبيات تحمل بين طياتها تبشيراً بالخير والعطاء من الممدوح الذي اثبت دوام حضوره

ثانياً: تجليات التضاد في (القرب والبعد)

يوظف الشاعر ثنائية القرب والبعد في الاغراض الشعرية ، فمن الفخر إلى الحكمة إلى الغزل تشكلت معاني الشاعر ، ووظف هذه المتضادات بحيث تتلائم مع كل الاغراض ، حتى إننا في كل غرض نجد شاعرية لتضاد القرب والبعد ؛ وذلك يرجع إلى شاعرية الحطيئة وتمكنه من المعاني ، فجاء(القرب / البعد) يكشف رؤية الشاعر ، وجاء التضاد محفزاً للمتلقي محاكياً لمشاعره وذائقته ، ففي الفخر يقول الحطيئة (٢٠) :-

يَتَقَرَّبُ المَجْدُ البَعيدُ بحيثُ يغضبُ من يُفاخِر

وهُمُ سقوني المحض إذْ قلصتْ عن الماء المشافر

تكشف معالم اللغة الشعرية في الابيات تجليات التضاد عند الشاعر ، فهو يرى أن ممدوحيه يتقرب إليهم كل بعيد ، فلا بعيد مع مجدهم ، فقد نالوا الثناء والمجد لذلك صار المجد يتقرب لهم ويريد إن يوصف بهم ويكون من سماتهم، وكأنه صفة لهم دون غيرهم ، ولا يحق لغيرهم الافتخار به ، ففي التضاد طاقة شعرية مكنت الشاعر من إن يقرب بين المتباعدين ، فالمجد البعيد الذي يسعى إليه الانسان ويقطع السبل في تحصيله نجد الشاعر من خلال التضاد يجعله يتقرب من الممدوحين و لاشك في إن((التضاد يمثل طاقة تنبيهية تجعل المتلقي يعيد النظر في قضايا شديدة البساطة والعمق في الوقت نفسه)) ٢١)

كما أعتمد الشاعر تضاد القرب والبعد في غرض الحكمة إذ يقول (٢٢):-

ولستُ أرَى السَّعادَةُ جَمعَ مَالٍ لكِن التقي هُوَ السَّعِيدُ

وتقوى اللهِ خَيرُ الزَّادِ ذُخراً و عِندَ اللَّهِ للأتقَى مَزيدُ

ومَا لَا بُدّ أَنْ يَأْتِي قَرِيبٌ و لَكِنَّ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدُ

يفرض التشكيل الشعري في الابيات تضاداً خاصاً بحكمة الشاعر ، انطلاقاً من رؤيته للمال ، فهو وإن عرف عنه الجشع والتكسب بالهجاء من اجل العطاء ، جاء بحكمة جميلة

تصدر عن نفس يملأها الرضا والقناعة وتنضح بالمعاني الإسلامية التي سرت في نفس الحطيئة ، وفي حكمته صور الحقيقة فالذي يذهب من الانسان من عمر وعمل وجمع مال فهو بعيد عنه منقوص منه ، أما الذي يأتي من الموت والجزاء فهو قريب من الانسان يحيط به ويتربص به ، إن هذا التحول في عواطف الحطيئة تجاه القيم الإسلامية سبب الإسلام الذي شذب من أخلاق الحطيئة ورؤيته للحياة ، وقد أعتمد الشاعر على النفي في مقدمة أبياته ليمكن المعنى في نفس المتلقي فهو ينفي إن تكون السعادة بجع المال أو السعي له وإنما السعادة من منظور الشاعر هي التقوى لذا أعتمد الشاعر على التكرار في ترسيخ المعنى لما له من دور كبير في توضيح الصورة لدى المتلقي فقد كرر (السعادة) مرتين و (التقوى) ثلاث مرات ، فلا تتحصل السعادة في الدنيا والاخرة إلا بتقوى الله ومخافته، وقام التضاد بتشكيل المعنى وتوضيحه إذ جاء (قريب بعيد) في سياق الحكمة التي أوردها ، فكل ما مضى فات ، وكل آت قريب.

ويوظف الشاعر التضاد بين القرب والبعد في شعر الغزل إذ يقول (٢٣) :

لَهَا طِيبُ رَيَّا إِنْ نَأَتْنِي وَإِنْ دَنَتْ وعثَةً فوق الفِراشِ الْمُمَهَّدِ

تَصَوَّعُ رَيَّاهَا إذا جئت طارقاً كَرِيحِ الخُزَامَى فِي نَباتِ الخَلَى النَّدِي

فلَمَّا رَأت مِنْ فِي الرّحال تعرَّضت حَياءً وصَدَّت تتقي القومَ بِاليَدِ

فبتنا ولم نكذبك لو أن ليلنا إلى الحَوْلِ لم نَمْلُ وقُلنا له ازْدَدِ

يتجلى التضاد في الابيات السابقة بين رؤيتين : (النأي / الدنو) فالشاعر العاشق يصف ريها وطيب رائحتها التي يتنسمها من بعيد أو قريب ، ولكنه يؤثر القرب وهو مطلبه وهو ما تحقق في سياق الابيات ، حتى أن الشاعر كرره مرتين وبشكل متتالي دلالة على قربها منه ، كما دل التتابع السردي في الابيات على القرب وتحققه (فلما رأت ، وصدت ، فبتنا) فالذي ربط القرب والبعد هو رائحة محبوبته التي ظل يحس رائحتها في قربها وبعدها ، وقد تناص

الشاعر مع النابغة الذبياني في قوله (تتقي القوم باليد) حين قال (٢٤):-

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

فبين الابيات تناص واضح وهذا دلالة على تأثره بمن سبقه من الشعراء وجعل شعره امتداداً لهم ، كما أخذ منه عمر بن أبي ربيعة الأمنية في طول الليل وامتداده ليزدد قرباً من محبوبته حين قال (٢٥).

فيا لَكَ مِن لَيْلٍ تقَاصَرِ طُولُهُ وما كان ليلي قَبْلَ ذلك يَقْصُرُ

فمعاني الغزل دائرة بين الشعراء وهم يعالجون الهوى ، واقتراب المحبوبة وابتعادها ، وبقت هذه المتضادات محوراً رئيسياً في اشعار الغزل على مر العصور .

ثالثاً- تجليات التضاد في الحياة والموت

يأتي دور التضاد في بناء النص الشعري، ويحمل موقف الشاعر ورؤيته للحياة والموت ، ويظهر موقفه المتردد بين اليأس والامل والموت والحياة يحمل عدة دلالات تكشف عن التناقض ، فالموت يغدو مطلباً للشاعر سواء لنفسه أم للآخرين ، مما يعكس حالة الشاعر النفسية التي ظهرت عليه بشكل جلي ، فالموت له راحة وخلاص .

يقول (٢٦) :

يَدَاكَ خَليج البحر إحداهما دماً تفيض وأخرى فعل حزم ونائل
فإنْ تَحْيَ لا أَمْللُ حَيَاتِي وَإنْ تَمُتْ فما في حياةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ

يتجلى التضاد في بنية النص ، وهي بنية لها أبعاد نفسية ، فالموت الذي يخافه الناس ويحذرون منه يغدو ضمن السياق النصي شيئاً محبباً ومفضل لدى الشاعر ،لأن رحيل الممدوح يعني نهاية الشاعر ونهاية العطاء الجزيل الذي يرفده به ، ولا فائدة من حياته دونهم ، رسم صورة تنبئ عن الحالة التي يعيشها الشاعر فحياته مرتبطة إن تعاضد الشرط مع ا التضاد بحياة الممدوح، وقد جاء الشاعر بالتضاد في البيتين فيدا الممدوح (إحداهما دما)، والدم يعني الموت واستعار لها (تفيض) دلالة على القوة والبطش الذي يفيض على الاعداء ، و(أخرى) جاءت في صيغة منكرة فلم تخصص تهويلاً ومبالغة في دلالاتها ، فاليد الأولى .دم _____ موت وفناء / والثانية فعل حزم ونائل _____ عطاء وحياة. إن تأكيد الشاعر وإلحاحه على الصيغ المنكرة (حياة) توكيداً لنفي أهمية الحياة لديه ((فالتنكير ممكن أن يكون تعميقاً يمنح البنية مقدرة على العطاء المتجدد المتواصل الذي يثري الدلالة متجاوزاً المتعارف عليه)) (٢٧) فقد تجاوز الشاعر بتنكيره (الحياة) المألوف وكسر أفق التوقع لدى المتلقي ، فقد جعل الموت هو المحبب والمطلوب في غياب الممدوح، وأتلف

التضاد بين البيتين فيد الممدوح الاخرى حياة ونائل وعطاء إذا فقدها الشاعر فقد الحياة معها .

وقال (٢٨) .

حياتكِ ما علمتُ حياة سُوءٍ... وموتكِ قد يسرُّ الصالحينا

وظف الشاعر التضاد (الموت والحياة) ليصور من خلاله رؤيته لواقعه المتناقض ، فالأم لم تكن الام الصالحة التي تزود أولادها بالنسب والمكانة ، وإنما اصبحت مصدر بؤس وشقاء دائم للشاعر ، وبالتالي عكس التضاد بين الموت والحياة رغبته في موتها ،فموتها أصبح مصدر سرور له وللآخرين

رابعاً- متضادات أخرى

بما إن الشعر تصوير للنفس الشاعرة بما يجعلها تنفعل ، فأن شاعرنا تجلى التضاد لديه في معاني متعددة مستفيداً مما يحدثه المثير الأسلوبي من تعبيرات ولكن برؤية الشاعر وبإطار

شعري جميل ، فتكثر الدلالات من خلال الصور الشعرية التي تعتمد على علاقات التضاد ، فقد تجلى التضاد لديه في الضوء/ الظلام إذا يقول (٢٩) :-

هُمُ القَوْمُ الَّذِين إذا الْمَتْ ... مِنَ الْأَيَّامِ مُظْلِمَةٌ أَضَاءُوا

هُمُ القَوْمُ الذين عَلِمْتُمُوهُمْ ... لَدَى الدَّاعِي إِذَا رُفِعَ اللِّوَاءُ

إذا نَزَلَ الشَّتَاءُ بدارِ قَوْمٍ ... تَجَنَّبَ دَارَ بَيْتِهِمُ الشَّتَاءُ

استثمر الشاعر التضاد ليبرز من خلاله مكانة ممدوحيه ، فالفرق بين الظلام والنور واضح وبيّن ، فقد جعل الممدوح بمثابة الضوء الذي يمحي الظلام ويبدده ، فالتشكيل الجمالي يبرز عندما يقارن الشاعر بين الضوء والظلام ويختار لهم صفة الضوء والنور الذي يسطع ويمحو الظلام والحاجة والعوز عن الشاعر ، وكذلك هم ينورون حياته بالعطاء ويغيثونه في وقت البلاء ، لذلك يعدهم بمثابة الضوء الذي يضيء للأخرين طريق الحياة . وفي ذات الشاعر تلج ثنائية ضدية اخرى هي الضيق والبؤس والجدب / اليسر والعطاء والرعاية ، فالشاعر يمدح هؤلاء القوم بأن جارهم في السنة المجدبة لايعاني وطأة الجوع أو البرد والضيق بفضل رعايتهم إياه وافضالهم عليه بما يغدقون من الكرم والعطاء ، واعتمد الشاعر لزيادة المعنى وتأثيره ، فالقوم كررها ثلاث مرات مدحاً وإعلاء لهم، كما كرر الشتاء مرتين وفيه كناية لطيفة ،إذ كنى عن السنة الماحلة المجدبة بالشتاء لما فيه من البرد القارص وقلة المؤن ، أما جار هؤلاء القوم فيعيش في جوار هم مخصباً مربعاً كأنه لم يصبه بأس من الشتاء

وتبرز ثنائية العز / الذل ، إذ يقول (٣٠) :

تصدُّ مناكب الأعداء منكم ... كَرَاكِرُ لَا يَبِيدُ العِزُّ فيها

كَرَاكِرُ مِن أَبي بكرٍ حُلُولُ ... و لكنَّ العزيز بها ذَلِيلُ

يبين الشاعر من خلال الابيات قوة قوم الممدوح وصلابتهم ، فهم يدفعون الأعداء لشدتهم وعزتهم التي تتمثل باجتماعهم الذي تكمن فيه قوتهم ، فكل عزيز من غيرهم ذليل وكل عزيز معهم يزدد عزاً وقوةً ، فهم لبأسهم وعزتهم إذا قارن بهم كل عزيز فهو ذليل عندهم ناقص عزه عنهم.

ويظهر التضاد في قوله (٣١) :

أَدَارَ سُلَيْمَى بِالدَّوَانِكِ فَالْعُرْفِ ... أقامت على الأرواح والدِّيمِ الوُطْفِ

وَقَفْتُ بها فَاسْتَنْزِفَتْ مَاءَ عَبْرَتي ... بها العين إِلَّا مَا كَفَفْتُ به طَرْفِي

فراق حباب وانتهاء عنِ الهَوَى ... وَلَا تَعْذُليني قد بَدَا لَكِ ما أُخْفِي

باح الشاعر في الوقفة الطللية بالهوى والشوق لمحبوبته (سلمى) وتجلى التضاد بين الاعلان / والكتمان ، فقد اجتمع على الشاعر فراق محبوبته وانتهاء الهوى ، لذا يخاطبها ان تمتنع عن العذل واللوم ، فقد بدا من الشاعر اليوم واعلن ما كان يخفيه ويكتمه ، أن

شدة وقع الفراق على نفس الشاعر ورؤية ديار محبوبته دفع الشاعر إلى الإعلان والبوح.

ويتجلى التضاد في موضع آخر من القصيدة إذ يقول (٣٢):-

يَقُولُونَ يَستَغْنِي ووَاللهِ مَا الْغِنَى من المال إلا ما يُعفُ وما يكفي

لَعَمرِي لَشدّتْ حاجةٌ قَدْ عِلمتُها أمامي وأُخْرَى لَوْ رَبَعْتُ لَها خَلْفِي

يرى الشاعر إن الغنى هو ما يحمل على القناعة والتعفف ، إن شدة الحاجة هي ما تدفع الشاعر إلى البحث عن المال ، فالشاعر ضمن الفضاء الزمني قد جرب مرارة الحاجة ، وبرز التضاد(أمامي / خلفي) بما يمثله من ماضٍ/ حاضر يصور ما يعانيه الشاعر، ويطرح من خلاله فكرته وفلسفته عن المال ، فالشاعر لايطلب الا ما يكفيه ويسد حاجته. وتتجلى ثنائية (أمام/ خلف) كنوع من أنواع التضاد ، فقد قسم اللغويون التضاد إلى اقسام مختلفة منها التضاد الاتجاهي ، أمام / خلف ، فوق/ تحت (٣٣) ، فالشاعر يعيش ضمن إطار الحاجة وقد احاطت فيه من امامه وخلفه ، ومن التضاد بين امام خلف نرى دلالة الحاجة تحيط بالشاعر وهو ما يجعل التضاد يولد ((فضاء مائزاً للنص إذ تجتمع علاقات زمانية ومكانية وفعلية بأزمنة مختلفة ، فتلتقي هذه العلاقات على اكثر من محور))[34]

ويبدو أن للتضاد أهمية كبرى داخل النصوص الشعرية ، فقد كشف عن الانفعالات والحالات الشعورية التي تصيب الشاعر ، كما ساعد على شد المتلقي للخوض وراء النصوص واستجلاء معانيها ، وقد لمسنا مدى فاعلية التضاد في ربط النصوص الشعرية ، فقد اصبح أداة جمالية تحرك فضاء النصوص الشعرية وتربط معانيها ، كما لمسنا مدى رقة نفس الحطيئة وقناعته وإن اغفلت كثير من الدراسات هذا الجانب المشرق في شخصية شاعرنا .

الهوامش

1 – القاموس المحيط الفيروز آبادي ،مادة ضد.

٢ – لسان العرب ، ابن منظور ، مادة ضدد.

٣– ينظر الحيوان ، للجاحظ ، ١/٢٦

– اسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني : ٣٢

هـ – اللغة العليا – النظرية الشعرية ، جان كوهين (١٨٧

٦ – الاغاني لأبي الفرج الأصبهاني٢/ 155.

7– ينظر ديوان الحطيئة ، عمر فاروق : ٦٠

8–في الشعرية، كمال ابو ديب : ٤٥.

٩ – قراءة سيميائية في طوق الحمامة ، بوقرة: ٣٥٣

١١– ديوانه : ١١٣.

١٢ – م . ن: ٩٨

١٣ – م . ن: ٧٠ .

١٤– نحو النص ، أحمد عفيفي : ١١٣.

١٥– ديوانه : ٩٧ .

١٦ – م . ن: ٩٦

١٧– م . ن: ٦٤،٦٣

١٨ – م . ن: ١٨١ ، وينظر : م. ن : ٧٢٠

١٩ – م . ن: ٤٣ .

٢٠ – م . ن: ٨٦.

٢١ – اللغة والشكل ، أمجد ريان : ٦١٠

٢٢ – ديوان الحطيئة : ٧٥

٢٣ – م . ن: ٦٠

٢٤– ديوان النابغة الذبياني محمد أبو الفضل إبراهيم : ٩٣

٢٥– ديوان عمر بن أبي ربيعة ، فايز محمد : ١٢٦

٢٦ – ديوان الحطيئة : ١٥٣٠

٢٧ – في البنية والدلالة ، سعيد أبو الرضا : ١٥٣

28 ديوان الحطيئة : ١٧٢

٢٩– م. ن : ٣١،

٣٠– م . ن : ١٥٣

٣١– م . ن : ١١٦

٣٢– م . ن : ١١٦

٣٣– ينظر علم الدلالة . عمر أحمد مختار .

٣٤ – الثنائيات الضدية ، سمر ديوب : ٧.

المصادر والمراجع

١- اسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، قراه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مطبعة المدلي

- القاهرة ، ١٩٩١، ط٣

٢ - الاغاني ، لابي الفرج الأصبهاني ، تح: سمير جابر ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٢

3- الثنائيات الضدية ، دراسات في الشعر العربي القديم، سمر ديوب ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، ٢٠٠٩

٤- الحيوان ، عمرو بن بحر الجاحظ ، شرحه عبد السلام هارون ، المجلس العلمي العربي الإسلامي ، بيروت ، ١٩٦٩، ط٣

5- ديوان الحطيئة ، شرحه وقدم له : الدكتور عمر فاروق الطباع، دار الارقم بن أبي الأرقم ، بيروت لبنان د.ت، د. ط .

٦- ديوان عمر بن أبي ربيعة ، فايز محمد دار الكتب العربي ، بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م، ط ٢

7- ديوان النابغة الذبياني ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، د.ت ، ط ٢

8 - الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٦٧هـ) دار الحديث القاهرة ، ١٤٣٢هـ ، (د.ت) .

٩- علم الدلالة ، عمر أحمد مختار ، مكتبة ودار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٢م، ط ١

١٠ - في البنية والدلالة ، سعد أبو الرضا ، منشأة المعارف الاسكندرية ، ١٩٨٢م، د.ط.

11 - في الشعرية ، كمال ابو ديب، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٧م، ط1 ١٢

- القاموس المحيط ، مجد الدين الفيروز آبادي ، دار الحديث ، القاهرة د.ت.

١٣- قراءة سيميائية في طوق الحمامة لابن حزم نعمان بوقرة ، مجلة جذور ، النادي الادبي الثقافي ، ع١٢، جدة ، ٢٠٠٣م.

١٤ - اللغة العليا- النظرية الشعرية، جان كوهين ، ترجمة وتقديم: أحمد درويش ، المجلس الاعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة، ١٩٩٥. د.ط.

١٥ - اللغة والشكل ، أمجد ريان ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، ط 1

١٦- لسان العرب ، جمال الدين بن مكرم ، قدم له عبدالله العلالي ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨م، د.ط.

١٧- نحو النص ، أحمد عفيفي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ٢٠٠م ، ط 1.